مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies)
جامعة وهران02/ المجلد 11 ع 03، 16 /06 /2022
ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

نقد الحضارة الغربية عند عبد الواحد يحي

Criticism of Western Civilization, According to Abd el-Wahid Yahia

شيخاوي جمال الدين* Chikhaoui djamal eddine jamalcikha91@gmail.com	فلسفة	مخبر الدراسات الإسلامية واللغوية جامعة عمار ثليجي- الأغواط
Doi: 10.46315/1714-011-003-008

الإرسال: 23/ 01/ 2021 **القبول**: 04/ 04/ 2021 **النشر**: 16/ 06/ 2022

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى تبيان النظرة التي قدمها "عبد الواحد يحي" للحضارة الغربية والتي أثبت فيها أنّ الحضارة الغربية تعيش اليوم أحلك الحقب، باعتبارها أهملت الجانب الروحي وبالغت بإفراط في الجانب المادي، والذي تسبب في انحراف العلوم التقليدية عن منحاها الصحيح المرتبط بمبدأ علوي، وانتهاجها مسلكاً ماديا بحتا، بالإضافة إلى بروز النزعة الفردانية التي دفعت بالإنسان الغربي للتخلي عن الدين وعلى كل ما هو ميتافيزيقي، والانسياق نحو كل ما هو مادي وكمي، وبفعل هذا يعيش الإنسان الغربي فراغاً روحياً رهيب وحياة بائسة، وكل هذه الأسباب هي دليل قاطع يضعه بين أيدينا "عبد الواحد يحي" ليثبت لنا تهافت الحضارة الغربية وأنّ مصيرها إن لم تتدارك الوضع سيكون الموت.
كلمات مفتاحية: الحضارة الغربية؛ أزمة؛ الروح؛ المادية

Abstract:

This study aims to show the point of view that " Abd el-Wahid Yahya " presented concerning Western civilization, in which he demonstrated that Western civilization today lives in the darkest era, as it neglected the spiritual side and exaggerated the material aspect excessively, which caused traditional science to deviate from its correct approach which is overhead principle . in addition to the emergence of the individualism that pushed the Western person to abandon religion and all that is metaphysical, and the drive towards everything that is material and quantitative, and by doing this Western people live a terrible spiritual vacuum and a miserable life, and all these reasons are conclusive evidence that " Abd el-Wahid Yahya" support to prove to us the rush of Western civilization and that its destiny will be deconstruction if it does not remedy the situation.

Keywords : Western civilization ; crisis, spirit; materialism

1- مقدمة

صحيح أنّ الغرب قد بلغ مبلغاً عظيماً من الرقي المادي، وحقق الثورات في العالم اليوم كالثورة التكنولوجية وثورة المعلومات، لكن إنسان الغرب اليوم الذي وضع أقدامه على سطح

* - الباحث المرسل: jamalcikha91@gmail.com

القمر لم يستطع أن يحقق لنفسه السكينة والسعادة على ظهر الأرض! فالإنسان الغربي يعيش قلقاً بالرغم من أنه يعيش في جوّ السلم والبحبوحة الاقتصادية، وهذا راجع لكونه قد أفرط في العناية بالجانب المادي هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى تَجَاهَلَ واغْتَرَبَ بشكل شبه كلّي عن الجانب الروحي، وبفعل هذا الوضع المتهالك والمريض للحضارة الغربية خرج "عبد الواحد يحي" ليشعل شمعة للروح داخل عالم مظلم بالمادية، ويعيد الاعتبار إلى الحضارة التقليدية، حضارة الروح في زمن خيمت عليه المادة، ويثبت للجميع عبر طرحه أن الحضارة الغربية تعيش شقاءً وتعاسة في ظلّ أزمة روحية بالغة العمق تنذر بزوالها. ويعتبر الطرح فريدا من نوعه كونه أول رجل غربي وجّهَ للحضارة الغربية نقدا مفصلاً اتسم بطابع روحي، وهذه الفرادة التي تحلى بها "عبد الواحد يحي" لم تكن وليدة الصدفة بل كانت مستوحاة من سيرة حياته المليئة بالأحداث والتحولات، ونتيجة لمخاض عسير في البحث عن الحقيقة التي فقدها الغرب. وفي هذا المقال سنجيب على التساؤل التالي:

فيما تمثلت أزمة الغرب التي كشف عنها عبد الواحد يحي؟ وماهي أهم الأفكار التي بين من خلالها تهافت الحضارة الغربية الحديثة؟

2- رينيه غينون ورو افده الفكرية

تعتبر حياة عبد الواحد يحي حافلة بالتحولات والتجارب التي لا تقل أهمية عما أنتجه الرجل من أفكار وإبداعات، خاصة في مجال نقد الحضارة الغربية. لقد ولد رينيه في 15 نوفمبر من سنة 1886م في بلدة "بلو" الفرنسية من أسرة كاثوليكية، تحصل على شهادة البكالوريا في الرياضيات سنة 1904م، بعد أن نال جوائز عدة تمنح للمتفوقين من أمثاله.(محمود، ع، د. ت، 288)

إلا أن دراسته في ذلك الوقت قد عرفت الخط الذي سيصبح طريقه إلى البحث المتواصل، فلم يكتفي بالدراسة الجامعية، بل راح ينهل من العلم في باريس الزاخرة بالمعلمين والمرشدين من الشرق والغرب، حيث تشرّب أساسيات تكوينه الروحي، وبدأ رحلته في البحث عن الحقيقة والتنقيب بين المنظمات المختلفة لمعرفة ما إذا كانت ذات طابع أصيل أم لا.؟ إذا لم يعد رجال اللاهوت الكنسي قادرين على تقديم إجابات مقنعة لأسئلته، فقرر الابتعاد ومحاولة البحث بنفسه عن اليقين المطلق في غياهب المجهول، فراح يدرس أهم المذاهب الدينية والفلسفات الروحية آنذاك. فقد كانت هناك التيوصوفية والحركة الغيبية والماسونية والهرمسية والمارتينية والعلوم النقلية المختلفة وغيرها. كان على رينيه غينون طوال الحقبة الممتدة بين عامي (1906م، و1909م) _التي كان في كل مرة يتمي فيها إلى مذهب وتوجه معين_ أن يتحمل الأفكار الغامضة وأحيانا

المشوشة التي كانت تصدر عن هؤلاء الناس، وبسبب هذا آثر الانسحاب. إذ لم يكن يرى فيهم غير كاريكاتوريات شوهاء عن أسرار روحانية عريقة كانوا بعيدين عنها كل البعد.

لقد كانت المرحلة الأخيرة في رحلة غينون في بحثه عن الحقيقة عنوانها التوجه نحو الشرق، هذه المحطة هي التي حددت المعتقدات والآراء النهائية لغينون والنتيجة كانت أن اعتنق غينون الاسلام عام 1912م بعد أن درسه دراسة مستفيضة واتخذ لنفسه اسم "عبد الواحد يحي".(محمود، ع، د.ت: 296)

أما بشأن أداة الاطلاع لديه فقد كان غينون لغوياً مبرزاً، إذْ يتقن مجموعة من اللغات السنسكريتية والعربية واللاتينية والعبرية والإغريقية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية والروسية والبولونية. والتي ساعدته في الإحاطة بعدد كبير من المذاهب الدينية العالمية.(بشتلة، م، 1986، 16)

حقيقةً لا يمكن الفصل بين سيرة الحياة وسيرة الفكر لدى عبد الواحد يحي، هذا ما يؤكده كل من اطلع على حياته وأعماله عن كثب، فكما أن حياته كانت حافلة بالأحداث والتحولات والانعطافات، كذلك جاءت إسهاماته غاية في التعدُّد والتنوُّع والثراء (مروان، م، 2019، 64)، وتعتبر هذه المسيرة التي انتهت به في أحضان الشرق المتمسك بالتراث الروحي، من أبرز العوامل التي ساهمت في اعطاء الصورة الكاملة للغرب لدى عبد الواحد، إذ يعد انتماؤه إلى التيار الفكري المدافع عن التراث الباطني، هو ما جعل منه ناقدا غربيا للغرب بعيون الشرق، فعلى غرار رواد الفكر الإصلاحي التقليدي في الغرب، انبرى عبد الواحد للنقد الجذري والعنيف للحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة، وذلك من حيث هي حضارة مفرطة في توجهها المادي. وعلى التوالي سنتطرق إلى أهم الآراء والانتقادات التي قدمها عبد الواحد يحي حول العالم الغربي الحديث.

3- الجذور التاريخية للأزمة الغربية

إن مسألة التقدم الغربي التي كانت في وقت قريب بمثابة العقيدة الثابتة التي لا ينبغي مساسها، لم يصبح مسلّما بها عند الجميع، بحيث أضحى البعض يستشف أن الحضارة الغربية يمكن أن تصل في يوم ما إلى نقطة التوقف أو تنهار تماما، وذلك بالرجوع إلى موضوع نهاية العالم الذي يشير إلى أن هناك حالة من قلق عام نعيشه في الوقت الراهن، وأن هناك استشعارا غامضاً بأن أمرا ما على وشك الانتهاء، لهذا نجد الكثير مهوسا بموضوع نهاية العالم. أو كما يرى عبد الواحد يحي هي ليست نهاية عالم فقط بل هي نهاية عهد أو دورة تاريخية، (عبد الواحد، ي، 2017، 5) والحضارة الغربية في شكلها الراهن هي التي ينبغي أن تنتهي، فمن الطبيعي أن المعتادين على

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

عدم اعتبار غيرها والنظر إليها على أنها هي "الحضارة"؛ أن يعتقدوا بكل سهولة أن كل شيء سينتهي بانتهائها، بحيث إذا زالت ستكون بالفعل نهاية العالم.

ويكمن التصور الذي تقوم عليه فرضية نهاية العالم في الجمع بين الطبيعي والإنساني وهنا لابد من التمييز بين إنسان الطبيعة وإنسان الإنسانية، فالأول شأنه شأن الكائنات العضوية الأخرى يولد ويموت، والثاني فيتحدد من خلال الحضور في التاريخ، وإنسان الحضارة الغربية _إنسان الحداثة_ هو إنسان الطبيعة بحكم الاهتمام بها ومحاولة ترويضها لصالحه، ورفضه لكل ماهو روحي، لذا ينطبق عليه ما ينطبق على الطبيعة من قوانين الطبيعة الحتمية. ويشير هذا إلى أنه فعلا مهدد بالزوال.(بن دوبة، ش، 2021، 71)

تبدو الحضارة الحديثة على صفحة التاريخ بينة الشذوذ، فقد انفردت دون سائر الحضارات التي نعرفها باتخاذها منحاً مادياً صرفاً في تطورها، وكذلك بعدم استنادها إلى أي مبدأ من منظومة أعلى، وقد صحب هذا التطور المادي الذي يمضي في طريقه منذ قرون وتزداد سرعته باطراد في تدهور فكري عرفاني لا يمكن لهذا التطور تعويضه، ومقصودنا الفكر العرفاني الروحاني الحقيقي الخالص. فلقد بيّن عبد الواحد يحي أننا في العهد الرابع المسمى (كالي يوقا)، -تقويم هندوسي اعتمده عبد الواحد يحي- أو العصر المظلم ونحن نعيشه منذ أكثر من ستة آلاف سنة، أي منذ زمن أقدم من كل العصور المعروفة في التاريخ الكلاسيكي (العصر الذهبي، العصر الفضي، العصر البرونزي، العصر الحديدي)(مروان، م، 2019، 65) ومنذ ذلك الحين والروحانية الأولى الفطرية في تعتيم وتفاقم تدريجي، وأمست الحقائق التي كانت سابقاً في متناول جميع الناس أكثر خفاءً وإدراكها أشد صعوبة، لكننا نجد في كل مكان الإشارة بواسطة رموز متنوعة إلى أمر أمسى مفقوداً في الظاهر لكنه سيعود إلى الظهور متزامناً مع بداية دورة جديدة.(عبد الواحد، ي، 2017، 11)

وحتى نفهم نقد عبد الواحد يحي للحضارة الغربية علينا أن ندرك أولا أنه كان ينتمي إلى التيار الفكري المدافع عن رؤية تراثية باطنية، التي هي أقرب إلى روح العرفان والتصوف الذي يستلهم عناصر يستقيها من مختلف الديانات والتيارات والمذاهب، خاصة تلك التي أنتجتها ثقافات الشرق القديم منذ قرون خلت. ويكتفي عبد الواحد يحي بذكر العهود الحرجة الأخيرة المتميزة التي مرّ بها الجنس البشري، لأنها الوحيدة التي في متناول علم التاريخ المألوف أو _كما يسميه_ "التاريخ الظاهري" المعروف عند عامة الناس، حيث أن آخر تلك العهود الحرجة ليست سوى ما يطلق عليه اسم العصور الحديثة، كما بين أن الحقبة التي يقصدها تعود بالضبط إلى القرن السادس قبل العصر المسيحي، بحيث يبدو وكأنه حاجز زمني لا يمكن تجاوزه بوسائل البحث المتوفرة لدى

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

الباحثين العاديين، ومنذ ذلك الحين أصبح تسلسل الأحداث مضبوطا ودقيقا في جل الأصقاع، «فالتاريخ والحضارة يبتدئان من أثينا، ويمران على روما، ثم يختفيان فجأة من الوجود لمدة ألف سنة، ثم يظهران من جديد بباريس في حركة النهضة» (بن قويدر، ع، 2016، 379) أما قبل ذلك فهي مجرد تقريبات غامضة و"مصر" و"الصين" مثال على ذلك، فهي تتعلق بعهود أقدم من ذلك بكثير ومع هذا فإن المؤرخين ينعتونها بالعهود الأسطورية !.(عبد الواحد، ي، 2017، 13)

لقد كان القرن السادس قبل الميلاد نقطة انطلاق للحضارة التي تدعى: الحضارة "الكلاسيكية"، وهي الوحيدة التي يعترف بها المحدثون بطابعها "التاريخي"، وكل ما سبقها غير معروف بكيفية غير دقيقة فوصموه "بالأسطوري".

ومن زاوية أخرى يرى عبد الواحد يحي أنه منذ أن تحول مفهوم "حب الحكمة" الذي يمثل حالً أقل سمّوا من الحكمة وهو مجرد سير نحو الحكمة أقول تحول إلى حال أخرى وأصبحت الحكمة غاية في حد ذاتها، وبالتالي نشأت ما يسمى بالفلسفة العمومية، «أي حكمة مزعومة وصناعة بشرية صرفة، فهي إذن من نمط عقلاني حلت محل الحكمة التراثية الحقيقية؛ الفوق عقلانية والغير بشرية؛ الحكمة الموصولة بالوحي الإلهي للأنبياء؛ والإلهام الرباني للأولياء»(عبد الواحد، ي، 2017، 17) وبالتالي انفصلت العلوم عن الفلسفة وأصبح كل علم يلتزم بجانب واحد من الكون يختصه بالبحث والدراسة، ولا يكاد يمسّ الجوانب الأخرى، أما الفلسفة فتتخذ من الكون بأسره موضوعا للدراسة وهي تَنْشُدُ توحيد المعرفة ما استطاعت، (أمين، أ، 1935، 6) وهكذا تشكلت الفلسفة العمومية على ماهي عليه اليوم منحصرة في الجانب "الظاهري"، مما لزم إقصاء الجانب "الباطني" إلى حد إنكار وجوده بكل بساطة، وهذا بالتحديد ما آلت إليه الفلسفة الحديثة بسبب التوجه الذي ابتدأه اليونانيون، فالتوجهات التي ظهرت بجلاء عند الإغريق دفعها المحدثون إلى أقصى مآلاتها، والأهمية المفرطة التي أضفوها على الفكر العقلاني تفاقمت إلى أن آلت إلى الفلسفة "العقلانية" _ميزة العصر الحديث_ وتفاقم إلى أن وصل إلى انكار كل غيب. وثمة مثال يمكن أن يتيح لنا الوقوف على مدى هذا التدهور، فقد كان كتاب "الخلاصة اللاهوتية"(somme théologique) للقديس توماس الأكويني متداولا بين الطلاب في زمانه، فأين من يستطيع من الطلبة اليوم أن يتعمّقه ويستوعبه؟.(رينيه، غ، 2018، 3)

أمّا العصر الوسيط حسب عبد الواحد يحي يبدأ منذ حكم "شارلمان" حيث يقول: «منذ ذلك الحين ابتدأ عهد جديد للانحطاط استمر متفاقما عبر مراحل متعددة إلى أن وصل إلى عصرنا الراهن» فبداية القرن الرابع عشر كان نقطة الانطلاق الحقيقية للأزمة الحديثة، وما يدعى بعصر

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

النهضة "رونيسونس" والتي تعني الولادة من جديد، كان في الحقيقة عصر موت لكثير من الأمور بحجة الرجوع إلى الحضارة اليونانية-الرومانية، والتي لم ينتق منها إلا ما هو أكثر سطحية (عبد الواحد، ي، 2017، 20) ومن المنطقي أن يفضي الانكار أو الجهل بالروحانية أو نسيانها إلى نشأة الوضعية(positivisme) وهي فلسفة ترى أن الفكر الانساني لا يدرك سوى الظواهر الواقعية والمحسوسة وبروز اللاأدرية(agnosticisme) وهي إنكار قيمة العقل وقدرته على المعرفة اليقينية المطلقة وسائر الانحرافات "العلموية" _ اتجاه يرمي إلى رد كل شيء إلى العلم _، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ظهور جميع النظريات المعاصرة التي لم ترضى بما يمكن أن ينتهي إليه العقل، فراحت تبحث عن شيء آخر ولكن في جانب الشعور والغريزة؛ أي فيما دون العقل لا فيما فوقه.

3- العلم الغربي دراية جاهلة

لقد نشطت حركة الاهتمام بالعلم انطلاقا من عصر النهضة، حيث اتجهت اهتمامات الباحثين والمفكرين صوب الطبيعة قصد معرفتها والسيطرة عليها ثم استغلالها لصالح الإنسان من أجل خدمته ماديا لرفع مستواه المعيشي وتحسين ظروفه الحياتية. بعبارة أخرى؛ "اهتمام بالعلم لتحقيق غاية نفعية وعملية".

وهكذا كان العلم الغربي يقتصر فقط على دراسة ظواهر العالم المحسوس؛ دراسة كل ما يمكن قياسه أو وزنه، وما نلح عليه هو أنّ كيفية تناول هذه الدراسة تتم بحيث لا يمكن وصلها بأي مبدأ من طراز سامي؛ وهذا بسبب عدم الاهتمام بكل ما لا يحقق منفعة للإنسان.

يرى عبد الواحد يحي أن هناك نوعين من العلوم؛ علم مقدس وعلم عمومي، أما العلم المقدس فهو كل إلهام روحي وخاصة المتعلق بالوحي الإلهي للأنبياء، وهو مبدأ كل شيء في الحضارات ذات الطابع التراثي الأصيل التي تندرج ضمن ميدان المطلق، وكل ما عداها مجرد استتباعات أو تطبيقات في مختلف المستويات، ومن بينها المعارف والعلوم التي ترجع إلى ميدان ما هو نسبي (العلم العمومي)، «وبالتالي يوجد فيما يتعلق بالعلوم مفهومان مختلفان بشكل جذري بل متعارضان، يمكن تسميتهما بالمفهوم التراثي والمفهوم الحديث»(عبد الواحد، ي، 2017، 53) وقد استخلص عبد الواحد يحي هذه الرؤية من خلال ما لاحظه على العلوم الحديثة التي تنزع إلى إخضاع الواقع الطبيعي لمبدأ الكم في صورته المفصلة، أي إلى الأعداد والمقادير وحصره في أبسط صور الإدراك. ومن الأمثلة المفيدة في بيان المقصود نأخذ «علم الفيزياء» كيف يفهمه القدماء والمحدثون، وفي هذه الحالة لن نخرج عن العالم الغربي لرؤية الفارق العميق بين المفهومين، فكلمة فيزياء بدلالاتها الأولى الاشتقاقية لا تعني سوى علم الطبيعة دون أي تخصيص، فهو إذن العلم

الذي يدرس قوانين الصيرورة الأكثر عموما، وذلك لأن الطبيعة والصيرورة مترادفان في الصميم «فعلم الفيزياء عند أرسطو لم يكن سوى علم ثانوي بالنسبة للميتافيزيقا أي أنها كانت تابعة لها، فلم تكن في الصميم سوى تطبيقاً في ميدان الطبيعة لمبادئ تعلو على الطبيعة وتنعكس في قوانينها»(عبد الواحد، ي، 2017، 55) وعلى هذا المنوال فهمها اليونانيون، أما التحريف الذي قام به المحدثون لكلمة فيزياء، فهو حصرهم لدلالتها في نطاق علم خاص من بين علوم أخرى كلها تندرج ضمن علوم الطبيعة، وهذه الظاهرة مرتبطة بالتجزئة والتشظي الذي يعتبر سمة من سمات العلم الحديث، وهذا ما يتسبب في الكثير من الأحيان إلى تضييق في الرؤية هذا من جانب. ومن جانب آخر لم يفهموا أيضا أن إقرارهم باستحالة توحيد ذلك التعدد في المعارف، يعود إلى امتناعهم عن ربطها بمبدأ أعلى وإصرارهم على الانطلاق من أسفل ومما هو ظاهري. وبلغ بهم الحال إلى حدّ إنكار كل ما يتجاوزها عبر نظريات منهجية وتحت أسماء مختلفة مثل الفلسفة الوضعية واللاأدرية ...

وعلى هذا يمكن القول إن الغربيين على العموم لا يبحثون في العلم من أجل العلم، وإنما هدفهم التطبيقات العملية، ولهذا فهم من هذا الباب أصبحوا لا يفرقون بين ما هو علمي وما هو تقني، والدليل هو السهولة التي يخلط بها غالبية المعاصرين لنا بين العلم والصناعة، فهم مثلا «يرون أن المهندس يمثل نموذجا للإنسان المبدع في حين أن المهندس بالمفهوم الصحيح هو نموذج للعالم، لأن ما يكون هو حصيلته المعرفية وليست التطبيقات العملية.». (بشتلة، م، 1987، 89)

إن عبد الواحد يحي أثبت في كثير من المواقع أن المحدثين جنوا على العلوم التراثية، فقسموها إلى العديد من التخصصات وسلبوا منها جوهرها الخالص المتعلق بمبادئ سامية عليا، ومن الأمثلة على حالات الانقسام الناتجة عن التخصص والتي حدثت بين أقسام كانت في أصلها علما واحداً، نذكر مصطلحي علم "النجوم" و"علم الفلك"، فإعطاء دلالات مختلفة على كل منهما هو أمر حديث نسبيا، وقد كانت الكلمتان عند الاغريق كلمتين كالمترادفتين الدالتين على جملة ما يشتمل عليه العلمان معاً في العصر الحاضر(عبد الواحد، ي، 2017، 59)، لكن الأمر المتميز هنا في هذه الحالة هو أن القسم الأكثر مادية للعلم المذكور قد تطور في اتجاه مستقل، بينما اختفى الآخر الأقل مادية تماماً. ومعنى هذا أنه لا يحق لأي شيء أن يوصف بأنه موجود أو يقرر بشأنه أنه موجود حقاً، إلا إذا كان خاضع للكم بحيث يمكن تقديره وحسابه والتعبير عنه بواسطة حدود كمية محضة، ولهذا فإن أي شيء لا تنطبق عليه هذه العملية فهو محروم من أي قيمة علمية.

وفي ميدان آخر مختلف تماماً يمكن أن نبين أن الرياضيات الحديثة لا تمثل سوى القشر من الرياضيات الفيثاغورية أي جانبها "الظاهري" الصرف، والمفهوم القديم للأعداد الذي يمزج بين التفكير الرياضي والتأمل الديني، (كاتي، ك، 2001، 32) أمسى مجهولا تماما عند المحدثين حيث اختفى الشطر الأعلى لهذا العلم وهو الشطر الذي كان يضفي عليه طابعه التراثي وقيمة عرفانية روحية. (عبد الواحد، ي، 2017، 61)

ومن خلال الأمثلة التالية يوضح لنا عبد الواحد يحي أن أهمية علم ما لو نظرنا له من زاوية المفهوم التراثي فهي معارف متوجهة صوب الحقيقة المطلقة الخالصة، باعتبارها انعكاسا لها كونها لها قابلية للتوصيل لها والتي لابد ألا يضحّى بها في سبيل اعتبارات عرضية -مادية بحته- ويعتبر هذا واحداً من العلل البارزة التي تشير إلى هشاشة الحضارة الغربية وتأزمها.

4- النزعة الفردانية والقصور العرفاني

تعتبر الفردانية هي الحالة التي يكون عليها الفرد كيانا مستقلا ومتفردا عن الجماعات التي ينتمي إليها، وقادرا على اتخاذ قراراته استنادا إلى امكانياته الخاصة وقدراته المستقلة عن أفراد الجماعة الآخرين الذين ينتمي إليهم الفرد(عابد، ن، 2017، 245)، ومن وجهة نظر عبد الواحد يحي يمكننا أن نعتبر الفردانية هي إنكار أي مبدأ أعلى من الفرد، وبالتالي فهو اختزال لجميع ميادين الحضارة في نطاق العناصر البشرية الصرفة وحدها، فهي إذن في صميمها نفس ما سمي في عصر النهضة باسم (النزعة الانسانية) أو (الأنسنة)، حيث يعتبر عبد الواحد يحي أن النزعة الفردانية هي السبب الحاسم في الانهيار الرّاهن للغرب، «باعتبار الفردانية تقتضي أولا إنكار الإلهام الروحاني (الوحي الإلهي) من كونه أساساً ملكة فوق_فردية وإنكار المجال المعرفي الخاص بهذا الإلهام؛ أي الميتافيزيقا بمفهومها الحقيقي».(عبد الواحد، ي، 2017، 68)

لقد أدى الافراط في تبني النزعة الفردانية إلى بروز العديد من التوجهات إن صح القول الزائغة عن الإلهام الروحي، حيث رُفع العقل فوق كل شيء وجُعلت هذه الملكة البشرية الصرفة والنسبية القَسَمَ الأعلى للإدراك، بل اختزل هذا الأخير بتمامه فيها؛ وهذا ما يعرف "بالنزعة العقلانية"، والذي أدى إلى فقدان العقل قيمته الخالصة شيئا فشيئا ولم يبقى سوى ذو دور معاشي وعملي فقط. يقول عبد الواحد يحي: «حتى ديكارت _مؤسس العقلانية_ نفسه كان في باطنه مهتما بهذه التطبيقات العملية أكثر من اهتمامه بالعلم الخالص»(عبد الواحد، ي، 2017، 69) وعلى هذا تم اعتبار أن كل ما وراء الطبيعة لا يمكن للفرد أن يدركه، بل أعلن آخرون بكل صراحة استحالة وجود لما وراء الطبيعة.

لكننا لا يمكن أن نوجه أصابع الاتهام إلى هاته الفلسفة بأنها سبب الانحراف الحاصل، وحتى إذا سلمنا بأنها تساهم في توجيهها إلى حد ما، فدورها في هذا التوجيه ثانوي ولا يحصل إلا بعد تشكلها بالفعل، ومن جهة أخرى لا يمكن أن نحمّل الفلاسفة المسؤولية على هذا الانحراف، ولم يكن ليحدث هذا لو لم تكن توجهات سابقة، لذا تنبغي العودة إلى عهد أقدم بكثير للعثور على جذور هذا الانحراف.

فبالعودة إلى الإغريق نرى أنّ السؤال المحوري الذي طرحوه هو: ماذا نعرف؟، وأجابوا عن هذا السؤال بمنهجية تفرض نفسها حتى العصر الراهن لكنهم أبدا لم يطرحوا السؤال: من الذي يعرف؟، أو من نحن؟، (عابد، ن، 2017، 246)بمعنى أنهم تجاهلوا الذات العارفة وأكدوا على أهمية موضوع المعرفة بذاتها، وهذا يعني أن بلاد الاغريق لم تهتم بالفرد، بحيث لم تسمح له بالخروج على معايير الجماعة وقيمتها وعاداتها وأعرافها وتقاليدها.

أما بالنسبة للعصر الوسيط فقد شهدت هذه المرحلة نزعة سيادية من طرف المسيحية؛ تلغي حرية الفرد واستقلاله بحيث أخذت الكنيسة الكاثوليكية على عاتقها مهمة الهيمنة على مختلف أشكال الحياة وتصرفات الأفراد، لأن كل المعتقدات والنظريات وجميع العلوم التراثية كانت تستمد من مصدر واحد هو الكنيسة، وبالتالي كانت كل الابداعات والعلوم والمعارف، حكرا على أطراف محددة.(الكحلاني، ح، 2004، 32)

أماّ عبد الواحد يحي فكان له رأي آخر، حيث يرى أنّ العصر الوسيط كان في قمة الروحانية إلا أنها تلاشت بعد ذلك لعدة أسباب حيث يقول: «أن العلوم التراثية كانت في العصر الوسيط مخصوصة بصفوة عدد أفرادها قد يزيد أو ينقص، وكان بعض تلك العلوم حكرا على مدارس بالغة الخصوصية [...] لكن من جانب آخر كان يوجد في التراث أيضا قسم يشترك فيه الجميع بلا تمييز»(عبد الواحد، ي، 2017، 72) ويقصد هنا أن التراث الغربي أخذ في مظهره الخارجي شكلا ديني يتمثل في الكاثوليكية، وبالتالي فالثورة ضد الروح سنراها واقعة في الميدان الديني، وهي التي لماّ أخذت شكلها النهائي وتبلورت تسمت "بالبروتستانتية" التي دعت إلى أنسنة الدين أي إباحة الاجتهاد فيه لكل أحد بلا اعتبار، وفي نفس الوقت تُبقي على عنصر "فوق_بشري"، وهو الإيمان بالوحي الإلهي فهي لا تتجرّأ على الدفع بالإنكار إلى حده الأقصى، لكنها باستباحة هذا الوحي لكل المناقشات الناجمة عن تفسيرات بشرية فردية صرفة تختزله إلى أن يؤول في الواقع إلى لا شيء، وبالتالي «غدت البروتيستانتية لا تعدو أن تكون مجرد مذهب أخلاقي خير ممثل لاتجاهات الروح الحديثة»(رينيه، غ، 2018، 7) وهذا التجرّأ على الدين هو ما أثّر وللأسف على الفكر الفلسفي

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

ببروز النزعة الفردانية، ومنذ ذلك تم رفض أي اعتراف بسلطة أعلى من الفرد، ورفض أي ملكة للمعرفة أسمى من العقل الفردي، وهما رفضان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر وهي الجذور التي تشير إلى بداية القطيعة مع الكنيسة (نورة، ع، 2017، 247) وبالتالي كان على العقلية الحديثة أن تنبذ كل سلطة روحية بالمعنى الحقيقي للكلمة، ورفض أي تنظيم ينتمي إلى تلك السلطة "الفوق_البشرية"، مما أدى إلى ظهور العديد من الفلسفات تحت نظريات مُمنهجة مبنية على قاعدة ترفع من شأن الفرد؛ ليس على حساب الجماعة بل باعتباره مخلوقا قادرا على ترويض الطبيعة لصالح الانسانية، ويعتبر هذا من بين أبرز المؤشرات التي تنذر بتأزم الحضارة الغربية وتقودها نحو مستقبل بائس.

5- أوهام مادية وخواء روحي

يعرّف عبد الواحد يحي المادية على أنها: «مفهوم يتصور عدم وجود شيء سوى المادة وما يصدر عنها»(عبد الواحد، ي، 2017، 94) ويؤكد عبد الواحد يحي على أن هذا المفهوم جديد وغير مسبوق، ولم يظهر إلا في العصر الحديث فبالنسبة للمحدثين لا يوجد شيء غير ما يمكن رؤيته أو لمسه، وحتى لو اعترفوا نظريا بوجود شيء آخر يسارعون إلى الإعلان أنه ليس مجهول فحسب، بل لا يمكن معرفته مما يعفيهم من الاهتمام به.

فالفيلسوف كانط (1728م.1804م) مثلا يرى أن العقل غير مهيئ للبحث في مسألة ميتافيزيقية، لأن العقل البشري يفكر ضمن مقولات والتي حددها في ثنتي عشر مقولة، ومن ضمنها مقولة الزمان والمكان، وبالتالي أي شيء خارج الزمن وخارج المكان لا يمكن تعقله ولا حتى التفكير فيه، ولهذا فكل ما يطلق عليه روحنه أو مثالية لا يعدو في أغلب الأحيان شكلاً من المادية.

والمحدّثون لا يتصورون أي علم غير العلم بالأشياء التي تقاس وتحسب وتوزن أي الأشياء المادية، لأنها الوحيدة التي يمكن أن تطبق عليها وجهة النظر الكمية، ونزعة اختزال الكيف إلى الكم هي من أبرز مميزات العلم الحديث. «وقد بلغ الغلو في هذا المنحى إلى حد إدخال القياس في ميدان علم النفس البسيكولوجي مع أن هذا الميدان خارج بمقتضى طبيعته عن نطاق القياس»(عبد الواحد، ي، 2017، 96)

إن العلم في رأي المحدثين ليس إلا دراسة الظواهر المحسوسة فحسب وهم يجرّون هذه الدراسة على نحو لا يمكن معه أن يصل ما بينها وبين أي مبدأ من منظومة أعلى. فالعلمويون _ المتعصبون بإفراط للعلم _ يتخيلون أن الإنسان لم تكن له قطّ غاية من المعرفة سوى شرح الظواهر الطبيعية فقط، على هذا يرى عبد الواحد يحي أن سبب ذلك تحيزهم بغير وعي وعجزهم التام عن إدراك إمكان المضيّ أبعد من ذلك. كما يشبّه إنكار الغربيين وجود علم يتجاوز طور الحس "بالعميان" الذين أنكرو وجود النور، لأنهم لا

يستطيعون رؤيته أصلا، أما قولهم بوجود ما لا يمكن للعلم أن يبلغه فهو حقيقته إقرار بالجهل، وما كان عليهم إلا أن يقولوا إننا لا نعلم وكفى، لا أننا لا يمكن أن نعلم.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن الشعوب الغربية أكثر اهتماما بالاقتصاد والصناعة والتجارة وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن التميز الاجتماعي الوحيد القائم هو ذلك الذي يعتمد على الثروة المادية، وهذا ما هيمن على السياسة وعلى العلاقات بين الشعوب، «زد إلى هذا أن المعاصرين لنا مقتنعون بأن الأوضاع الاقتصادية تكاد تكون هي العوامل الوحيدة المتسببة في الأحداث التاريخية، بل يتخيلون أن الأمر على هذا المنوال في كل الأزمنة السابقة»، (عبد الواحد، ي، 2017، 99) هذا ما عرف لاحقاً على شكل نظرية "بالمادية التاريخية"، ويقرر هذا المذهب أن الهدف الوحيد الذي يجب على الانسان أن يسعى إليه هو تحقيق الغايات أو الخيرات المادية التي تجود بها الحياة، فيستمتع بها وحدها فقط، «وبهذا الاتجاه الذي رسمته المادية الجدلية يكون الفكر المادي برمته قد اتجه صوب تصليب العالم، وذلك بإرجاعه إلى المادة أولا ثم إلى الكم ثانيا، حيث أننا نجد أن المادية لا تقيم التغيرات المفارقة للواقع، بل إنها تحاول دائما أن تقدم تغيرا للعالم مبني على المادة في صورة كمية محضة وذلك بعدما تطوي الوجود برمته ضمن لواء المادة»(بشتلة، م، 1987، 72) وبواسطة هذا تسعى المادية الجدلية إلى قطع الصلة ومنع إقامة أي علاقة بأي مبدئ من طراز عالي، وتعلن العداوة صراحةً لكل ما هو تقليدي، بل إنها تمثل شطراً هاما من حركة معارضة كل ما هو قديم.

وقد بلغ هذا إلى حدّ البحث عن المادة خارج الإطار الجغرافي للحضارة الغربية بحثا عن المادة تحت غطاء "نشر الحضارة" أي مجرد قناع على ذهنية الغزو والمصالح الاقتصادية ومحاولة لفرض الغربوية(قرم، ج، 2011، 74) يقول عبد الواحد يحي: «ما أعجب هذا العصر الذي يقتنع فيه كثير من الناس أن تحقيق سعادة شعب ما يكون باستعباده وبسلبه أعز ما يملكه؛ أي حضارته الخاصة به وإجباره على تبني عادات ومؤسسات وضعت لجنس أو سلالة أو شعب آخر»(بشتلة، م، 1987، 103).

6- *-خاتمة

لقد أوضح عبد الواحد يحي أن الحضارة الغربية منذ بدايتها الأولى فقدت أهم عنصر للبناء الحضاري ألا وهو "الروح" وحقا نراها اليوم حضارة بدون روح، ووضح أنها تعيش اليوم أحلك حقبة تنذر بزوالها بفعل مجموعة من النزعات، وعلى رأسها رفض أي حقيقة مطلقة، كما استطاع أن يحدد مكانة هذه الحضارة وقيمتها ومصيرها، وأثبت أنها تعيش بؤساً لا مثيل له والتي إن لم تتدارك نفسها فإنها قد تجر الإنسانية جمعاء إلى الدخول في زوبعة نشاط فوضوي، وتؤدي بها إلى مصير محتوم ألا وهو "الموت". فهو بهذا التصور لا يزدري من شأنها ويستخف بها لمجرد الاستخفاف. بل كان كل همه هو أن يوقفها عند أسباب انحرافها ويحذرها من مغبة ذلك ويمدّ لها يد المساعد المشفق عليها، وما يدين به عبد الواحد يحي الحضارة الغربية هو أنها أهملت الجانب الروحي إهمالاً أدى إلى شقائها، مما أثر على جميع المجالات، ودفع

بالفردانية والنزعة العملية إلى أبعد الحدود، ولا شك أن هذا سبب في وقوعها في أزمة. تنذر بزوالها واندثارها، فالتقدم من منظور غربي لا يعني التطور الحادث في جانبه المادي فحسب، بل هو إنكارٌ لكل معنى آخر للحضارة الغربية ومن ثمّ التنكر لما خالفها من أصحاب الحضارات الأخرى، وقد كان من الأجدر بها وهي الحضارة الشابة أن تجلس من الحضارات الشيخة الأخرى مجلس التلميذ من الأستاذ بدل أن تُشيح عنها بوجهها.

إن هذا الفهم التعيس للحضارة لم يؤدّي إلى أزمة في العالم الغربي فقط، ولكنه كان وبالاً على العوالم والحضارات الأخرى باعتبارها نمطا لجميع الحضارات، واعتدادها النموذج الأمثل للأمم فضلا عن كونها الوحيدة التي تستحق الإسم وقد بلغ هذا الباطل غايته بإيمان أصحابها بالتقدم، فبات من الطبيعي أن يكون مرادفاً في حقيقته لذلك التطور المادي، وما تجهله الحضارة الغربية أن الحضارات كثيرة ومتنوعة وأنها يفيد بعضها بعضا وأن كل حضارة لها مسارها الخاص الذي تتخذه وهي تتقدم تارة وتتراجع أخرى.

****

6- المصادر والمراجع

1) أمين، أحمد.(1935). قصة الفلسفة اليونانية. (ط2). القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.
2) بشتله، معمر. (1987). هيمنة الكم في الحضارة الغربية المعاصرة من وجهة نظر رينيه قينون. رسالة مقدمة لنيل شهادة الدراسات العليا. غير منشورة. تخصص الفلسفة. جامعة أبو القاسم سعد الله، الجزائر.
3) شريف الدين، بن دوبة. (2021). اليوتوبيا ونهاية التاريخ، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، (العدد1، المجلد10، ص71)، الجزائر: وهران.
4) عابد، نورة. (2017). مفهوم الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، مجلة مقاربات فلسفية، (المجلد4، العدد1، ص. 244-255.)، الجزائر: جامعة عبد الحميد ابن باديس مستغانم
5) عاشور، بن قويدر. (2016). نقد عالمية الحضارة الغربية عند مالك بن نبي، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، (العدد26، المجلد8، ص 375-382)، الجزائر: جامعة قاصدي مرباح ورقلة.
6) غينون، رينيه. (2018). إصلاح العقلية الحديثة، (د.ط)، القاهرة: مركز نماء للبحوث والدراسات.
7) قرم، جورج. (2011). تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، (ط1)، بيروت: دار الفرابي.
8) كاتي، كوب. (2001). إبداعات النار: تاريخ الكيمياء من السيمياء إلى العصر الذري، (د.ط)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
9) الكحلاني، حسن. (2004). الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، (ط1)، القاهرة: مكتبة مدبولي.
10) مروان، محمد. (2019). رينيه غينون: الافتتان بحكمة الشرق، مجلة الدوحة، (العدد 142، المجلد1، ص 65-65)، قطر: الدوحة.
11) يحي، عبد الواحد. (2017). أزمة العلم الحديث، (ط1)، الأردن: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.